نهاية الإيجاز

في إثبات سُكنى قبائل الأنصار في بادية الحجاز

نصوص مهمة للمؤرّخين والبلدانيين

عبدالرّزّاق الصّاعديّ

المدينة المنورة ١٤٤٣هـ

تنبيهٌ مُهِمّ

الغاية من هذا البحث إثبات سُكنى قبائل الأنصار في بادية الحجاز، بعد العصر النبويّ، ولن يتناول البحثُ (المسألة الأنصارية) ودخولهم في قبائل أكبر، فلها بحثٌ آخر وحديث مستطيل، سيأتي إن شاء الله

جاء الإسلام وقبائل الأوس والخزرج حجازية حاضِرتُها يثرب، ومنهم من يسكن الواحات والقرى القريبة منها، وكان بعضهم باديةً يُقيمون ويظعنون بماشيتهم، كما قال بعض المؤرخين، وسيأتي، وكان بين الأوس والخزرج حروبٌ ووقائعُ رواها المؤرّخون، ومنها: حرب سُمَير، وحرب كَعْب بن عمرو المازني، ويوم السَّرَارة، ويوم فارِع، ويوم الرَّبيع، ويوم الفِجار الأوّل والثاني، وحرب الحُصين بن الأَسْلَت، وحرب حاطِب بن قَيْس، ثم يوم بُعَاث، وهو أشهرها، وكانت قبائل الأوس والخزرج في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- تسكن في قرى حول المدينة، يقرب بعضها حتى يلامس المدينة، ويبعد بعضها عنها، وقد جاء في حديث الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ بن عَفراء، قالت: أرسلَ رسولُ الله -صَلّى اللهُ عليه وسلّم- غداةَ عاشُوراء إلى قُرَى الأنصار، التي حول المدينة: «مَنْ كان أصبَحَ صائِمًا، فليُتِمَّ صومَهُ، ومَن كان أصْبحَ مُفطرًا، فليُتِمَّ بقيّةَ يومه»[(١)].

والحِلف بين قبائل الأنصار ومُزينة قديم متجدّد، كان قبل يوم بُعَاث وبعده، فرضته الخُلطة والمشاركة في بعض الدّيار، فحالفت مُزينة الأوس في بُعَاث، ثم حالفت الخزرج فيما بعد، وهم جيرانها غرب المدينة، وكان بنو عوف بن الخزرج ومُزينة شركاء في غزوة خيبر، وقع سهمهم في ناعِم من النَّطاة[(٢)]، وكان بين مزينة والخزرج مصاهرات[(٣)].

ويذكر ابن شبّة (٢٦٢هـ) منازل مزينة في المدينة، ومن حلّ معها من قيس، وذكر أنّ ممّن نزل معهم وخالطهم بنو هُذْبة بن لاطم بن عثمان بن عمرو، وأشار إلى أنهم نزلوا

---

(١) صحيح مسلم (ح١١٣٦) ٢/ ٧٩٨، واللفظ له، والحديث في صحيح البخاري (ح ١٩٦٠) ٣/ ٣٧، وصحيح ابن خزيمة (ح ٢٠٨٨) ٣/ ٢٨٨.

(٢) ينظر: تاريخ المدينة لابن شبّة ١/ ١٩٢، تحقيق محمد فهيم شلتوت، وقال السهيلي في الروض الأنف للسهيلي ٧/ ١٢٦ ت السلامي، و٦/ ٥٢٦ ت الوكيل: ثُمّ كانَ الخامسُ سَهْمَ ناعِمٍ، لبنى عوف بن الخزرج ومُزَينة وشُرَكائهم. وينظر: جوامع السيرة النبوية لابن حزم ١٧٠.

(٣) ومن الخزرج عِتْبانُ بن مالك بن عَمرو بن العَجلان بن زَيد بن غَنْم بن سالم بن عوف، وأمّه من مزينة. ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٥٥٠ (دار صادر)

ما بين زاوية بيت القروي المطلّ على بُطحان الغربية، إلى زاوية بيت أبي هَبّار الأسدي، الذي صار لبني سَمْعان الشرقيّة إلى خطّ بني زُرَيق، إلى دار الطائفي التي بشقّ بُطحان الشرقي، ونزل معها في هذه المحلّة بنو شَيْطان بن يَرْبوع، من بني نَصْر بن معاوية، وبنو سُلَيم بن منصور، وعَدْوَان بن عمرو بن قيس، وعن شرقي خطّة مزينة، وسُليم بن منصور أيضًا، وسعد بن بكر بن هوزان بن منصور إلى دار خلدة بن مخلد الزَّرْقي. وأدنى دار أمّ عمرو بنت عثمان بن عفان، إلى بيوت نفيس بن محمد، مولى بني المُعَلَّى في بني زُرَيق من الأنصار، إلى أن تلقّى بني مازن بن عديّ بن النَّجّار. ثم قال: «فهؤلاء الذين نزلوا مع مُزينة، ودخل بعضهم في بعض، وإنما نزلوا جميعًا؛ لأنّ دارهم في البادية واحدة»(١).

وذكر البَلاذريّ في أنساب الأشراف أنّ النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- كانَ يشرب من بئر رُؤمة بالعقيق، ونقل عن الواقديّ قوله: «وهي بئر قديمة كانت انطمّتْ، فأتى قومٌ من مُزينة، فحالفوا الأنصار، وقاموا عليها بأبدانهم وأصلحوها»(٢)، ومعلوم أنّ مزينة مكوّنٌ مهم من مكونات حرب اليوم، وديارهم مجاورة لديار الأنصار، كانت ولم تزل.

وبعد انقضاء العصر النّبويّ وانقضاء خلافة عثمان -رضي الله عنه- وظهور الفتنة بين المسلمين تفرّق الناس وتحزّبوا، وخرجت جموع من أهل المدينة، ومنهم الأنصار (من قبائل الأوس والخزرج) فمنهم من التحق بالأمصار، ومنهم من خرج إلى قُرًى وأوديةٍ متفرّقةٍ بالحجاز، هروبًا من الفتنة، ومع ذلك بقي جمع من قبائل الأنصار في المدينة ومحيطها، في صدر الإسلام إلى صدر القرن الثاني، وكانوا ملء العين والبصر في المدينة أيّام الفتنة بمقتل عثمان، وهم كذلك بعد منتصف القرن الأول، ويدلّ على كثرتهم حينذاك كثرةُ من قتل منهم يوم الحرة سنة ٦٣هـثم قُتل منهم ومن غيرهم خلق

(١) تاريخ المدينة لابن شبّة ١/ ١٦٥.

(٢) أنساب الأشراف ١/ ٥٣٦ ، وينظر: إمتاع الأسماع ٧/ ٣٥٠.

كثير في يوم قُديد في القرن الثاني، سنة (١٣٠هـ) وكانت الوقعة فيه بين أهل المدينة وأبي حمزة الخارجيّ الأعور اليماني.

وضيّق بعض الخلفاء على الأنصار لميلهم إلى الطالبيين ونتج عن ذلك انتشارهم في أودية الحجاز وخروج بعضهم إلى الأمصار، والتحاق بعضهم ببعض الطالبيين في قطائعَ لعليّ بن أبي طالب في نواحي رَضوى وينبع، وقال عرّام السلمي: «ومن عن يمين رَضْوَى لمن كان منحدرًا من المدينة إلى البحر، على ليلة من رضوى: (ينبع)، وبها منبر وهي قرية غَنّاء، سكانها الأنصار وجهينة وليث، أيضًا»[١]، ونقله عنه الحربي في المناسك[٢]، وأبو عبيد البكري في معجم ما استعجم[٣]، والحافظ الحازمي في الأماكن[٤]، وابن الجوزي في المنتظم[٥]، وياقوت في معجم البلدان[٦]، والسمهودي في وفاء الوفاء[٧]، وقال عاتقُ البلادي: «وكان يسكنها الأنصار وجهينة وليث»[٨]، وقال مثل هذا في كتابه قلب الحجاز[٩]. وكان بعضُ الأنصار قد تَبدَّوا في البادية، فاصبحوا يظعنون كسائر القبائل البدوية. قال الهمداني في حديثه عن مساكن العرب فيما جاوز المدينة: «فمن وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدنية إلى حد الجبلين إلى ما ينتهي إلى الحرة ديار سليم لا يخالطهم إلا صِرْمٌ من الأنصار سيّارة، وقد يحالّون طيّئًا»[١٠].

---

(١) أسماء جبال تهامة وسكانها ٢/ ٣٩٧، ٣٩٨.

(٢) ٥٣٨.

(٣) معجم ما استعجم ١/ ٦٥٦.

(٤) ٢/ ٩٣٢.

(٥) المنتظم في تاريخ الملوك والملوك ١/ ١٤٢.

(٦) ٥/ ٤٥٠.

(٧) وفاء الوفاء ٤/ ١٦٦.

(٨) معجم معالم الحجاز ١٠/ ٣٧.

(٩) ص ١٦٢.

(١٠) صفة جزيرة العرب ٢٧٤.

ولم يكن بوسع المدينة لما وقع فيها من أحداث بعد عصر النبوة أو حلّ بها من جَدْب عبر الأزمان أن تستبقي أهلها كلّهم، وكان جلُّهم من الأنصار، وليس لأكثرهم إلا أن يخرجوا منها، وينساحوا ويتفرّقوا في الأرياف والأودية المحيطة بها والخيوف، وكذلك الآفاق البعيدة، وقد أخبر النبي -صلّى الله عليه وسلم- بخروجهم في حديث جابر بن عبدالله، عند البَزّار برجال الصّحيح مرفوعًا، قال: «لَيَأْتِيَنَّ على أهل المدينة زَمانٌ ينطلقُ النّاسُ منها إلى الأرياف يلتمِسُون الرَّخاءَ فيجِدُون رَخاءً ثُمّ يأتُون فيَتَحَمَّلُونَ بأهليهم إلى الرَّخاءِ والمدينةُ خيرٌ لهم لو كَنُوا يَعلَمُون»[1]، واللفظ للبزّار، ورواه المنذري، وقال: رَواهُ أحمد والبَزَّار واللّفظ له ورِجاله رجال الصّحيح[2]، قال ابن حجر: في إسناده بن لَهِيعة، ولا بأس به في المتابعات، وورد هذا الحديث بروايتين، إحداهما هذه، وفيها: (الأرياف)، والأخرى رواية أحمد بن حنبل، وفيها: (الآفاق)، مكان الأرياف، والمعنى متقارب، فالأرياف جمع ريف، وهي ما قارب المياه في أرض العرب، وقيل: هي الأرض التي فيها الزرع والخِصب، مما هو خارج المدينة وكان صالحا للسكنى، ويشمل البلدان المفتوحة كثيرة الأرياف والمياه، وأما الآفاق فجمع: أُفُق، وهي النواحي من الأرض، وكذلك آفاقُ السماء نواحيها، وأُفُقُ البيت من بيوت الأعراب ما دون سُمكه[3]، والأُفُق أيضا هو كل ما ابتعد عنك حتى غاب عن بصرك خلف الجبال وفُويقها، تقول الشمس في الأُفُق، إذا انحدرت إلى المغيب وقاربتِ الأرضَ بعين الرائي، ومسافة الأُفُق نحو خمسين ميلا من مكانك، ثم يغيب عنك كل شيء حتى الجبال، ومن معاني الآفاق البلدان المتفرقة، قال الشاعر:

---

(١) صحيح لغيره، وفي إسناده ابن لهيعة، رواه أحمد والبزار واللفظ له، ينظر: الترغيب والترهيب للمنذري (ح ١٨٥٤) ٢/ ١٤٤، وفتح الباري ٤/ ٩٣، وعمدة القارئ ١٠/ ٢٣٩، والمعجم الكبير للطبراني ٣/ ١٤٤، وشرح الزرقاني على الموطّأ ٤/ ٣٥٣، وصحّحه المنذري والألباني، وفي المسند (ح ١٤٦٨٠) ٢٣/ ٣٧ وغيره مكان الأرياف: الآفاق، والآفاق تشمل كل ما هو خارج المدينة.

(٢) الترغيب والترهيب للمنذري (ح ١٨٥٤) ٢/ ١٤٤.

(٣) العين ٥/ ٢٢٧.

وقـد نقَّبْـتُ في الآفـاقِ حتى رَضِيتُ مـن الغنيمةِ بالإيابِ

وقال ابن ميّادة:

يَكْفِيكَ من بَعْضِ ازدِيارِ الآفاقْ سَمْـرَاءُ مِمّا دَرَّسَ ابنُ مِخْـراقْ

معناه يكفيك من زيارة الآفاق والجَوَلان فيها هذه النّاقةُ السَّمراء.

وديار الحجاز البعيدة عن المدينة داخلة في الآفاق. والحديث بلفظَيه: (الأرياف) و(الآفاق) صحيح، وبأيّ الروايتين يصحّ المعنى المراد من خروج أهل المدينة منها إلى آفاق أو أرياف خارجها، والحجاز منها. وهو في الروايتين يدلّ على خروجهم من المدينة بعد عصر النبوّة، وهذا ما حدث وأيّدته المصادر، فمنهم من خرج إلى الأمصار المفتوحة البعيدة، في العراق والشام وأفريقيا، ومنهم من خرج إلى الأودية والخيوف والعيون الجارية الواقعة في أودية الحجاز وتهامة بين الحرمين وفي أطراف المدينة، وكان بعضهم بادية يُقيمون ويَظعنون، تحكمهم ظروف العيش والخِصب، ووصفهم أبو علي الهَجَري (من علماء القرنين الثالث والرابع) بأنّهم كانوا بادية يظعنون بماشيتهم، قال: «وكان الأنصاريّون أهل عَمُود وماشية»[١]، وقد مرّ معنا في نصّ الهمداني المتضمّن أنّ من الأنصار صِرْمٌ يضعنون ويحالّون طيّئًا. وكما استهوتِ الباديةُ بطونًا من الأنصار أو أجبرتهم الظّروف على أنْ يخرجوا من مدينتهم استهوت القرشيين أيضًا، أو ربّما أجبرتهم ظروفهم هم أيضًا، فأَلِفوا عيش البادية، فصاروا بدوًا رُحّلًا، كغيرهم من القبائل.

وفي كتاب الإصْطَخْريّ (المسالك والممالك) نصٌّ بالغ الأهمّيّة يذكر طوائفَ من الحَسَنيين الرُّحّل في البادية، ويشير إلى أنّهم أعراب يظعنون ويتبعون مواطن الخِصب في نواحي ينبع وجبل رضوى وساحل البحر، ولم يكونوا أهل قرار، قال الأصطخري

(١) التعليقات والنوادر ٣/ ١٤١١.

المعروف بالكرخي المتوفى سنة ٣٤٦هـ: «وبقرب ينبع جبل رضوى، وهو جبل مُنيف ذو شعاب وأودية، ورأيته من ينبع أخضر، وأخبرنى من طاف فى شعابه أنّ به مياها كثيرة وأشجارًا... وبقربه فيما بينه وبين ديار جهينة وبلِيّ وساحل البحر ديارٌ للحسنيّين، حَزَرْتُ بيوتَ الشَّعَر الّتى يسكنونها نحوًا من سبعمئة بيت، وهم بادية مثل الأعراب، ينتقلون فى المراعي والمياه انتقال الأعراب، لا تميّز بينهم فى خَلْق ولا خُلُق، وتتّصل ديارهم مما يلى المشرق بودّان»[١]، وكان وجود الحَسَنيين جاذبًا ومغريًا لقبائل الأنصار، فاتّجه بعضهم إلى البادية الغربية للمدينة التي تمتدّ إلى ينبع، مرورًا بأودية الصفراء وجبل الأشعر، ثم جبل رَضْوى، وقد ذكرهم في الصفراء ورضوى وينبع عرّام السلمي وأبو عبيد البكري وياقوت الحموي وعاتق البلادي، كما سيأتي في النصوص المفصّلة.

ويشير ابن تَغْري بَرْدي في نقل له عن المِقْرِيزي إلى تفرّق الأنصار في الآفاق لطلب العيش أو محاربة الكفّار، وذكر أنّهم انقرضوا من المدينة فلم يبقَ منهم إلا بقايا متفرّقين بنواحي الحجاز وغيرها[٢]، وذكرت بعض المصادر أنّ المدينة كادت تخلو منهم، في الأعصر الوسيطة والمتأخّرة، لتعاقب خروجهم منها منذ العصر الأموي، وثمة نصوص عن البلدانيين والنسّابة وفي كتب التراجم تؤكّد سُكنى الأنصار في الحجاز بعد صدر الإسلام في مثلث كبير بين المدينة وينبع ومكّة، وثمة نقوش متناثرة في تلك المنطقة لبعض الأنصاريين، وقد رصد بعضَها باحثون ميدانيّون، ولم تزل في الحجاز نقوش للأنصار لم ترصد بعد[٣]، وسأنقل بعض النقوش في بحث آخر غير هذا البحث الوجيز.

(١) المسالك والممالك ٢٥ طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة.

(٢) المنهل الصافي ٤/ ١٨٦.

(٣) ذكر لي الباحث محمد المغذوي الحربي أنه رصد نحو ٤٠٠٠ نقش في تخوم المدينة والأودية والجبال المحيطة بها ومنها وادي الصفراء، وذكر أنه وقف على نقوش عديدة للأنصار، نشر بعضها في حسابه في تويتر.

وثمة نصوص كثيرة في المصادر القديمة تثبت سُكنى الأنصار بعد العصر النبوي في مناطق متفرقة من الحجاز وتهامة في المثلث الكبير الواقع بين الحرمين وينبع، ونقل أكثرها مؤرّخ الحجاز البلداني عاتق البلادي في كتابه معجم معالم الحجاز، ومن تلك النصوص:

١- يونس بن محمد الظَّفَري الأنصاري، من تابعي التابعين، من عَقِب أَنَس بن فضالة الظّفري الأنصاري، عاش في القرن الثاني، أدركه الواقدي وروى عنه، وذكروا أنه كان يسكن الصفراء، قال ابن عبدالبرّ: «أنس بن فضالة بن عديّ بن حرام بن الهتيم بن ظفر الأنصاري الظفري... ومن ولد أنس بن فضالة: يونس بن مُحَمَّد الظفري. منزله بالصفراء»[١]، ونقل ابن الأثير الجزري هذا النص في كتابه[٢]، وكان يونس الأنصاري عارفًا بنواحي الصفراء وقبور الصحابة في بدر، قال الواقدي: «حدثني يونس بن محمد الظفري قال: أراني أبي أربعة قبور بسَيَر- شعب من مضيق الصفراء- فقال: هؤلاء من شهداء بدر من المسلمين»[٣].

قلت: والصَّفراء عند إطلاقها تحتمل القرية وتحتمل الوادي، وقد يُسمّى الوادي الكبير باسم بئر أو جبل أو قرية فيه، ومن ذلك قرية الفُرع ووادي الفُرع، وقرية الصفراء ووادي الصفراء، وقرية العَرْج ووادي العَرْج، ومثل هذا كثير في جزيرة العرب، وحين يطلق الاسم فإنه يحتمل الوادي ويحتمل القرية، ويحدّده السياق أو العرف.

٢- ذكر ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) في الطبقات -عند ترجمة عبد الله بن سهل من الخزرج- عمرَو بن جشم بن الحارِث بن الخزرج، وأشار إلى انقراض نسله، ثم

---

(١) الاستيعاب ١/ ١١٢.

(٢) أسد الغابة ١/ ١٤٩ ط دار الفكر.

(٣) المغازي ١/ ١٤٧.

كأنّه استدرك وأشار إلى بعض عقبهم، قال ابن سعد: «وقد انقرض أيضًا ولد عمرو بن جشم بن الحارث بن الخزرِج منذ زمان طويل، وهم أهل راتج، إلا أنّ في أهل راتج قومًا من غسّان من ولد عُلْبة بن جَفْنة، خلفاؤهم آل أبي سعيد، ولهم اليوم عقب يسكنون الصفراء بناحية المدينة، ويدّعون أنّهم من ولد رافع بن سهل وأنّ عمهم عبد الله بن سهل الذي شهد بدرًا»[١]، ولم ينكر ابن سعد دعواهم، ويبدو أن المصادر التي ذكرت المنقطعين الذين لم يُعقِبوا لم تكن دقيقة في كل ما تذكر، وهذا موضوع بحث لطيف وشاقّ، ولو بحثه باحث لأتى بشيء يصحّح مصادرنا، وقد رأيت من ذلك أشياء ليس هذا مكان الحديث عنها.

٣- وقال عرّام السلمي (من علماء القرن الثالث) وهو من أهل الحجاز، وكان خبيرًا بمسالكه وسُكّانه: «والصّفراء قريةٌ كثيرة النخل والمزارع، وماؤها عيون كلّها، وهي فوق ينبُع مما يلي المدينة، وماؤها يجري إلى ينبُع، وهي لجهينة والأنصار ولبني فهر ونهد»[٢]، ونقله أبو إسحاق الحربي (ت ٢٨٥هـ) في المناسك[٣]، ونقله ياقوت الحموي[٤] عن عرّام، ونقل عاتق البلادي عن ياقوت عن عرّام أنّ الصفراء كانت لجهينة والأنصار وبني فِهر ونَهْد[٥]، ولم يُنكر عليهما، وورد هذا أيضا في كتاب البكري[٦]، وقال البلادي في كتاب آخر: «المعروف أنّ وادي الصفراء كان في بداية الإسلام لبني غفار من كنانة، ولكن لا يُستبعد أن تكون الأنصار

(١) الطبقات الكبرى ٣/ ٣٤٠ دار الكتب العلمية.

(٢) أسماء جبال تهامة وسكانها ٤/ ٣٩٨.

(٣) المناسك ٥٣٨، ٥٣٩.

(٤) معجم البلدان ٣/ ٤١٢.

(٥) معجم معالم الحجاز ٥/ ١٥٠.

(٦) معجم ما استعجم ٢/ ٨٣٦.

وجهينة قد تملّكتا فيه بعد الإسلام»[١]. قلت: وتملّك القبيلة يقتضي سكناها، في الأعلم الأغلب.

٤- وقال عرّام السُّلمي: «ومن عن يسار الطريق مقابلا قُدسًا الأسود جبلٌ من أشمخ ما يكون، يقال له (آرة)، وهو جبلٌ أحمر تخرّ من جوانبه عيون، على كل عين قرية، فمنها قرية غنّاء كبيرة يقال لها (الفُرع) وهي لقريش والأنصار ومُزينة»[٢]، ونقل هذا النصّ البكريّ عن السُّكُوني[٣]، وذكر الحافظ الحازمي الفُرع، وقال: «وهي لقريشٍ والأنصار ومُزينة»[٤]، وابن الجوزي في المنتظم[٥]، وكذلك ياقوت الحموي[٦]، وقال عاتق البلادي نقلا عن ياقوت: إنها لقريش والأنصار ومزينة[٧]. وياقوت ينقل عن عرّام أو البكري، وعاتق لم ينكر عليهم.

٥- وقال عرّام السلمي: «ومن عن يمين رَضْوَى لمن كان منحدرًا من المدينة إلى البحر، على ليلة من رضوى: (ينبع)، وبها منبر وهي قرية غَنّاء، سكانها الأنصار وجهينة وليث، أيضًا»[٨]، ونقله عنه الحربي (ت ٢٨٥هـ) في المناسك[٩]، وأبو عبيد البكري[١٠]، والحافظ الحازمي في الأماكن[١١]، وابن الجوزي في المنتظم[١٢]،

---

(١) قلب الحجاز ١٤٤.

(٢) أسماء جبال تهامة وسكانها ٢/ ٤٠٤.

(٣) معجم ما استعجم ٣/ ١٠٥١.

(٤) الأماكن ٢/ ٧٣٩، ٧٤٠.

(٥) المنتظم ١/ ١٤٥.

(٦) معجم البلدان ٤/ ٢٥٢.

(٧) معجم معالم الحجاز ٧/ ٤٢.

(٨) أسماء جبال تهامة وسكانها ٢/ ٣٩٧، ٣٩٨.

(٩) ٥٣٨.

(١٠) معجم ما استعجم ١/ ٦٥٦.

(١١) ٢/ ٩٣٢.

(١٢) المنتظم في تاريخ الملوك والملوك ١/ ١٤٢.

في معجم البلدان[١]، والسمهودي في وفاء الوفاء[٢]، وقال عاتقُ البلادي: «وكان يسكنها الأنصار وجهينة وليث»[٣]، وقال مثل هذا في كتابه قلب الحجاز[٤].

٦- وقال عرّام السلمي: «ثم يُطْلَع من الشَراة على ساية وهو وادٍ بين حاميتين، وهما حَرتان سوداوان، وبه قرى كثيرة مسماة، وطرق كثيرة من نواحي كثيرة، فاعلاها قرية يقال لها الفارِع، بها نخل كثير، وسُكّانها من كل أفناء الناس، ومياهها عيون تجري تحت الأرض، فُقُرٌ كلُّها والفُقُر والقنا واحد، وواحد الفُقُر فقير. ثم أسفل منها مَهايع، وهي قرية كبيرة غنّاء، بها ناس كثير، وبها منبر، ووالي ساية من قِبَل صاحب المدينة، وفيها نخيل ومزارع وموز[٥] ورُمان وعنب، وأصلها لولد علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وفيها من أفناء الناس وتجار من كل بلد. ثم خيفٌ يقال له (خَيف سَلّام)، والخيف: ما كان مجتّبًا عن طريق الماء يمينًا وشمالًا مُتَّسعًا، وفيه منبر وناس كثير من خُزاعة، ومياهُها فُقُرٌ أيضًا، وباديتها قليلة، وهي جُشَم وخُزاعة وهُذيل، وسَلّام هذا رجل من أغنياء هذا البلد من الأنصار»[٦]، ونقل الحافظ الحازمي عن الأشعث الكندي هذا النص[٧]، ونقله ياقوت الحموي[٨]، ويفيد هذا أنّ بعض الأنصار كانوا يتملّكون في تلك الديار هناك ويسكنون، وأشار عاتق البلادي[٩] إلى الرجل الأنصاري الذي كان يمتلك الخيف، وهو ينقل

(١) ٥/ ٤٥٠.

(٢) وفاء الوفاء ٤/ ١٦٦.

(٣) معجم معالم الحجاز ١٠/ ٣٧.

(٤) ص ١٦٢.

(٥) كذا في المطبوعتين، مطبوعة الميمني ومطبوعة عبدالسلام هارون، ووهّم البلادي عرّاما لهذا الموز، ولا أرى توهيمه، فقد يكون سهوًا منه أو تحريفا من ناسخ.

(٦) أسماء جبال تهامة وسكانها ٢/ ٤١٣، ٤١٤.

(٧) الأماكن ١/ ٤١٨.

(٨) معجم البلدان ٢/ ٤١٢.

(٩) معجم معالم الحجاز ٣/ ١٨٤.

عن عرّام أو عمّن نقل عنه كالبكري وياقوت، وفي هذا أشارة إلى وجود بعض الأنصار هناك، ومنهم هذا الأنصاري صاحب الخيف.

٧- وقال عرّام السلمي: «ثم إلى (الرَّحضيّة) قرية للأنصار وبني سليم، من نجد، وبها آبار ومزارع»[١] (أي شرق الحجاز مما يتاخم نجدًا) ووافقه عاتق البلادي وذكر أنّها للأنصار وبني سليم[٢] و هو ينقل عنه.

٨- وقال عرّام السلمي: «ثم تمضي مصعدًا نحو مكة فتميل إلى وادٍ يقال له (عُريفِطان مَعنٍ) ليس به ماء ولا رعي، وحذاءَه جبالٌ يقال لها (أُبْلَى)، وحذاءَه قُنّة يقال لها (السَّوْدة) لبني خُفاف من بني سُليم، وماؤهم (الصَّعْبِيّة) وهي آبار يُنزِعُ عليها، وهو ماء عذب وأرض واسعة، وكانت بها عين يقال لها (النَّازِيَة) بين بني خُفاف وبين الأنصار، فتضاربوا فسدّوها، وهي عين ماؤها عذب كثير»[٣]، ونقل هذا ياقوت وأشار إلى سُكنى الأنصار بها[٤]، وذكر عاتق البلادي[٥] خلاصة هذه الحادثة وأنّ ممن يسكنها الأنصار، نقلا عن أبي الأشعث الذي يروي كتاب عرّام ولم يُنكر سُكنى الأنصار بها.

٩- وقال عرّام السُّلمي: «وبين مكة والطائف، قرية يقال لها (راسب) لخَثْعَم، و(الجَوْنة): قرية للأنصار»[٦]، وذكرها الحافظ الحازمي وأشار إلى أنها للأنصار[٧]، للأنصار[٧]، وقال عاتق البلادي: «جُونة: اسم قرية بين مكة والطائف، يقال

---

(١) أسماء جبال تهامة وسكانها ٢/ ٤٢٧.

(٢) معجم معالم الحجاز ٤/ ٤٢.

(٣) أسماء جبال تهامة وسكانها ٢/ ٤٢٩.

(٤) معجم البلدان ٣/ ٤٠٦.

(٥) معجم معالم الحجاز ٥/ ١٤١.

(٦) أسماء جبال تهامة وسكانها ٢/ ٤١٩.

(٧) الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة ١/ ٢٧٩.

الجُونة، وهي للأنصار»[1]، ورجّح حمد الجاسر أنّ الجونة هذه مصحّفة من الحَوِيّة، المعروفة اليوم[2]، قلت: ظهور الأنصار في تلك الأماكن وسكناهم في الجونة أو الحَوِيّة يدلّ على تفرّقهم وتمدّدهم وانتشارهم حتى وصلوا إلى نواحي الطائف، ويدحض ادّعاءَ من يزعم أنّ الحجاز أقفر من الأنصار!

١٠- وأشار أبو عليّ الهجري (من علماء القرن الثالث والرابع) -في بعض الشعر الذي رواه- إلى حضورٍ لبعض الأنصار في أطراف وادي عباثر من أودية الأشعر الغورية[3]، قال في حديثه عن وادي الأشعر: «ومن أوديته: عَباثِر، وهو لبني عَثْم من جهينة، وفيه يقول الخارجي:

خلـــيليّ دُلاّني عَبــــاثرَ إنّهـــا
يمُرُّ على قـيسِ بـن سـعدٍ طريقُهـا
هَـدَتْنا لهـا مَشْـبُوبةٌ يُهْتَـدَى بهـا
يُضــيءُ ذُرَى ذاتِ العُظُوم حَريقُها

يعني قيس بن سعد بن زيد الأنصاري... وفي عَباثر طريق يُفضي إلى ينبع»[4].

١١- وأشار لُغْدة الأصفهاني (من علماء القرن الثالث) إلى الأنصار في قرية بِرْمة، قال: «ووراءَ خيبر بِرْمة، قرية لقريش والأنصار ولكلٍّ»[5]، وهذا دليل آخر على انتشار الأنصار في نواحٍ بعيدة عن المدينة، فهم من سُكّان بِرْمة وراءَ خيبر، كما

(١) معجم معالم الحجاز ٢/ ١٨٩.
(٢) ينظر: الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة ١/ ٢٧٩ الحاشية رقم: ٣.
(٣) التعليقات والنوادر ٣/ ١٣٢٠.
(٤) التعليقات والنوادر ٣/ ١٣٢٠.
(٥) بلاد العرب ٣٩٥.

قال، وحدّدها ياقوت بأنها بين بَلاكِثَ ووادي القُرى، وذكر البلادي[1] في نقلٍ عن البكري[2] أنّ بَلاكِثَ هذه فوق خيبر من طريق مصر.

١٢-وأشار الهَمْداني -فيما أوردته بين يدي هذا البحث- إلى بعض الأنصار الذين حلوا في البادية في نواحي شمال المدينة، ووصفهم بـأنهم: (صِرْم) من الأنصار، قال: «من وادي القرى فمن وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدنية إلى حدّ الجبلين إلى ما ينتهي إلى الحرّة ديار سليم لا يخالطهم إلا صِرْم من الأنصار سيّارة وقد يحالّون طيّئًا»[3].

١٣- وأشار أبو الفرج الأصفهاني إلى الأنصار في الرَّوْحاء، غرب المدينة، قال: «حدثني عيسى بن الحسين، قال حدثنا الزبير بن بكّار، قال: بلغني عن صالح بن قدامة بن إبراهيم بن محمد بن حاطب الجُمحي يروي شيئا من أخبار الخارجي وأشعاره، فأرسلت إليه مولى من موالينا، يقال له محمد بن يحي، كان من الكُتّاب، وسألته أن يكتب لي ما عنده، فكان فيما كتب لنا قال: زعم الخارجي؛ واسمه محمد بن بشير وكنيته أبو سليمان، وهو رجل من عَدْوَان وكان يسكن الرَّوْحاء، قال: بَيْنا نحن بالرَّوحاء في عام جَدْبٍ قليل الأمطار، ومعنا سليمان بن الحصين وابنُ أخته، وإذا بقطار ضخم، كثير الثقل يهوي، قادمٍ من المدينة، حتى نزلوا جانبَ الروحاء الغربي، بَيْننا وبينَهم الوادي، وإذا هم من الأنصار، وفيهم سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت»[4]، قلت: في هذا إشارة إلى أنّ الجدب سبب من أسباب خروج الأنصار من المدينة يلتمسون أرضًا أصابها القطر، وأنّ ما أخرجهم ذاك العام أخرج من قبلهم ويخرج من بعدهم، والجدب الذي يصيب

(١) معجم معالم الحجاز ١/ ٢٤٩.

(٢) معجم ما استعجم ١/ ٢٧١.

(٣) صفة جزيرة العرب ٢٧٤.

(٤) الأغاني ١٦/ ٦٨.

المدينة في بعض السنين مع ما ذكرته من أسباب في صدر هذا البحث يفسّر خروجِ الأنصار من مدينتهم ليسكنوا أماكن عديدة من الحجاز، ويتمددون إلى قرب الطائف جنوبًا وما وراء خيبر ونواحي البِرْمة وبَلاكث ووادي القُرى شمالا وينبع غربًا، وهذا مما يُفسر تحوّل قبائل وبطون من الأوس والخزرج إلى عيشة البادية وانخراطهم فيها ومخالطة غيرهم ممن يسكنون تلك الديار.

١٤-وذكر أبو عبيد البكري في حديثه عن (نَخْلٍ) في نواحي (التُّخيل المعروفة اليوم شمال الحناكية) نقلا عن يعقوب في حديث عن (نَخل) قوله: «هي قرية بوادٍ يقال له شَدَخ، لفزارة وأشجع وأنمار وقُريش والأنصار»[١]، ونقله عنه عاتق البلادي[٢]، ولم يردّه.

١٥-وقال ياقوت في رسم فرّان: «وفَرّان: ماء لبني سُليم، يقال له مَعْدَن فَرّان، به ناسٌ كثيرة، وهو منسوب إلى فَرّان بن بِلِيّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، نزلت على بني سُليم، فدخلوا فيهم، وصاروا منهم، فكان يقال لهم: بنو القَيْن»[٣]، وفي هذا إشارة إلى سهولة دخول قبيلة عريقة من قبائل قحطان في قبيلة عريقة من قبائل عدنان. وقال ياقوت في رسم العالية: «ومن أهل الحجاز من ليس بنجديّ ولا غوري وهم الأنصار ومزينة ومن خالطهم من كنانة ممن ليس من أهل السيف فيما بين خيبر إلى العرج مما يليه من الحرة»[٤]. وفي هذا دلالة واضحة أيضًا على سُكنى الأنصار في مناطق واسعة من الحجاز، ويستفاد من نص ياقوت –أيضا- الإشارة إلى اختلاط مزينة والأنصار وكنانة، وهو اختلاط قديم، ولا يستغرب؛ والحلف بين قبائل الأنصار ومزينة قديم ومتجدد، كان قبل يوم بعاث وبعده،

---

(١) معجم ما استعجم ٢/ ١٣٠٣.

(٢) معالم الحجاز ٩/ ٣٨.

(٣) معجم البلدان ٤/ ٢٤٥.

(٤) معجم البلدان ٤/ ٧١.

فرضته الخُلطة والمشاركة في بعض الديار، فحالفت مزينة الأوس في بعاث، ثم حالفت الخزرج فيما بعد، وهم جيرانها غرب المدينة، وكان بنو عوف بن الخزرج ومُزينة شركاء في غزوة خيبر، وقع سهمهم في ناعِم من النَّطاة[١]، وكان بين مزينة والخزرج مصاهرات[٢].

١٦- وذكر أبو عليّ الهجري -ونقله عنه السمهودي[٣]- أنّ لبني الأَدْرم -وهم من بني تميم بن لؤي- ماءً قديمًا على طريق حمى ضَرِيّة إلى المدينة على ثمانية عشر ميلا من ضرية يسمى الجَفْر، ومعهم نفر من بني عامر بن لؤي، فاحتفر سعيد بن سليمان المُساحقي العامري عينا وأساحها وغرس عليها نخلا كثيرا على ميل أو نحوه من جَفْر بني الأدرم بدارة الأسود، جبل عظيم أسود، وهي عامرة كثيرة النخل. قال أبو عليّ الهَجَري: «واحتفر جَوْشَن[٤] مولى ابن هشام حُفيرة على ميلين أو ثلاثة من جَفْر بني الأدرم وحُفرة المُساحقي، سماها الجَوْشنية، ثم اشتراها ناس من ولد رافع بن خُدَيج من الأنصار، وأحدثوا بقربها حُفيرة بقطيعة السلطان، فنازعهم محمد بن جعفر بن مصعب بحق بني الأَدْرم، وكان من أشد الرجال، فقاتلهم وحده، فاجتمعوا فأصابه رجلان منهم بفَرْعين خفيفين في رأسه، فأخذهما أَسْرَى حتى أقدمهما ضَرِيّة، واستعدى عليهما الحسن بن زيد بالمدينة، فضربهما بالسياط، ثم عفا عنهما. واختصموا في الجَوْشنيّة والحُفيرة حتى قضى لبني الأدرم والمُساحقي، فكلمهم الناسُ فسبقوهم بهما، وكان الأنصاريون أهل عمود وماشية، فلما كانت الفتنة أكلتهم لصوص قيس من كلاب وفزارة، فلحقوا

(١) جاء في الروض الأنف للسهيلي ٧/ ١٢٦ ت السلامي، و٦/ ٥٢٦ ت الوكيل: ثُمّ كانَ الخامسُ سَهْمَ ناعِمٍ، لبنى عوف بن الخزرج ومُزَينة وشُرَكائهم. وينظر: جوامع السيرة النبوية لابن حزم ١٧٠.

(٢) ومن الخزرج عِتْبانُ بن مالك بن عَمرو بن العَجلان بن زَيد بن غَنْم بن سالم بن عوف، وأمّه من مزينة. ينظر الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٥٥٠ (دار صادر)

(٣) وفاء الوفاء للسمهودي ٣/ ١٠٩٧، ١٠٩٨.

(٤) في وفاء الوفاء ٣/ ١٠٩٨. جرش.

بطيئ وناسبوهم، فأمنوا مدّة، ثم أغارت عليهم لصوص طيّئ فتفرّقوا وتركوا البادية»[١].

١٧- وأشار محمد بن علي الأكوع محقّق مختصر الإكليل وهو يتحدث عن الصفراء في الحاشية إلى نص ياقوت المتضمّن أن الصفراء لجهينة والأنصار، ثم أورد رأيه هو فقال: «وتحمِلُ هذا الاسم إلى وقتنا هذا، وغالب من يسكنها من الأنصار، ثم من آل الأكوع المنتسبين إلى سَلَمَة الأَكْوَع وعمومته»[٢].

١٨- الشيوخ في ساية، قال البلادي: «والشّيوخ: بطن في ساية وفي خليص وحَجر ودَوقة والطائف... وكل هذه المسمّيات ترجع إلى أصل واحد، هم الأنصار، حسب أقوال كبارهم»[٣].

١٩-الشيوخ في ساية أيضا، قال د. مبارك المعبّدي: «وهناك قبيلة الشيوخ الذين يسكنون في قرى بني سُليم في وادي ساية، ولقد زرت تلك القرى، فوجدت الشيوخ يسكنون في قرية الغَرِيف والرُّمَيضة والعُوَيصد والكامل، وقال لي أحد رجال بني سُليم: إنّ هؤلاء الشيوخ يسكنون هذه القرى منذ زمن قديم، وإنّ أصلهم من بقايا الأنصار القدامى في المدينة المنورة، وقد سكنوا مع بني سليم وصاهروا عشائرهم. وقال أحد أبنائهم: إنّ من فروعهم ذوي حبوش وذوي فهد وذوي عائشة. وقبيلة الشيوخ منتشرة بكثرة في معظم منطقة الحجاز مع قبيلة حرب»[٤]. وقال: «وكثيرًا ما يُطلق على الشيوخ لقب الأنصار، فهناك من يكتب الشيخ، وهناك من يكتب الأنصاري، وفي الحقيقة أنّ قبيلة الشيوخ تحتاج إلى مؤلَّف مستقلّ، مثل قبائل الأشراف، لكثرة عددها وتواجدها في أماكن كثيرة

---

(١) التعليقات والنوادر للهجري ٣/ ١٤١٠، ١٤١١. وينظر: وفاء الوفاء للسمهودي ٣/ ١٠٩٧، ١٠٩٨.

(٢) الإكليل ١/ ٣٠٤ ح٣.

(٣) معجم قبائل الحجاز ٢٥٥.

(٤) ملامح من تاريخ قبيلة حرب: زبيد في الحجاز ١٧٠.

متفرقة في المملكة العربية السعودية أو في بلادة الشام أو في اليمن، ولقد ذكر الأستاذ حمد الجاسر أنّ بعضًا من الشيوخ حلفاء لبني زبيد من حرب، وهؤلاء يسكنون في وادي خُليص وغُران وحَجر وأم الجِرْم وغيرها، أمّا شيوخ البَرْزة فهم حلفاء بني عمرو، بصفة عامة، وحلفاء قبيلة مُعبّد بصفة خاصّة»[١].

٢٠-الموازين في وادي ستارة، قال البلادي: «المَوازين: حيّ من الشيوخ في وادي ستارة، قريتهم هناك الغزيلة تصغير غزالة، يقولون: إنهم يعودون بأصلهم إلى المصابيح سكّان أم الجِرْم في غُران، وأنّهم من الأنصار»[٢].

٢١-الشيوخ في أمّ الجِرْم، قال البلادي: «الشيوخ: بطن صغير في أمّ الجِرْم بغُران، يقال لهم: المصابيح، وهم حلفاء الصحاف من زبيد من مسروح من حرب، والشيوخ –عموما- يدّعون أنهم من الأنصار»[٣].

٢٢- الطُّمح من بني السفر في كلية، قال البلادي: «الطُّمَح: بطن من بني السفر من مسروح من حرب، يسكن كليّة ورابغ، ويدّعون أنّ لهم نسبًا في الأنصار»[٤]. وقال في كتاب نسب حرب: «الطُّمح: والنسبة إليهم طميحي، وأكثرهم بدو رُحّل، ويدّعون أن لهم نسبًا في الأنصار، وذكر لي الشيخ هاشم بن الحسين السفري ما يؤيّد ذلك»[٥].

٢٣- وجاء في كتاب القطائع النبوية لحمد الجاسر ما نصّه: «الأنصار هؤلاء يجاورون بني سُليم، فهم يسكنون المدينة، وبلاد بني سليم تمتدّ إلى مقربة منها، ولا شكّ أنّ الصِّلات بين السُّلميين والأنصار لم تقف عند حد الجوار؛ فقد

(١) ملامح من تاريخ قبيلة حرب: زبيد في الحجاز ١٧٠، ١٧١

(٢) معجم قبائل الحجاز ٥١٦.

(٣) معجم قبائل الحجاز ٢٥٥.

(٤) معجم قبائل الحجاز ٢٨٤.

(٥) نسب حرب ٤٢.

حالف بعض السُّلميين بني سواد بن غنم من بني سَلِمة، وهو الصحابي عنترة الذكواني السَّلِمي، وقد تكون هناك صلات غير الجوار والحلف، ولهذا نجد أُناسًا من الأنصار يخالطون بني سُليم في مواضع في شمال بلادهم، مثل الرَّحْضَية والصَّعْبَية، وكثيرًا ما كان الاختلاط سببًا للتنازع والشقاق، وهكذا يحدث بين الفريقين، والغريب في الأمر أنّ الأنصار ما كانت تمتدّ بلادهم خارج المدينة قبل ظهور الإسلام، وما كانت لهم بادية، وحول القرن الثالث الهجري تملّكوا مواقع في شرقي المدينة وجنوبها خارجة عنها، كما يذكر الهمداني أنّ منهم بادية تخالط بني سليم، ووجه الغرابة أن القبائل بعد أنْ تتحضر لا ترجع إلى البادية في الغالب»[1].

٢٤- ومما يؤيّد ما ذكره المؤرخون والبلدانيون في النصوص الكثيرة السابقة إشارةُ القاضي عياض وابن فرحون إلى تبدّد الأنصار من المدينة وقلّتهم فيها، ولم يذكرا سببًا لذلك، وما هو إلا خروج بعضهم إلى الأمصار خارج جزيرة العرب وانتقال بعضهم إلى قرى الحجاز وتهامة كما وصف عرّام السلمي ومن روى عنه من أكابر البلدانيين المحققين كالسُّكُوني، وأبي الأشعث الكندي، ولُغْدة الصفهاني، وإبراهيم الحربي، وأبي عبيد البكري، و الحافظ محمد بن موسى الحازمي، وياقوت الحموي، وعاتق البلادي. وقال محمد حسن شرّاب في كلامه عن المدينة المنورة في القرن الثالث: «دعت الحاجة إلى إقامة سور لحماية أهل المدينة من هجمات البادية... حيث تزايد عدد الموالي والعبيد والمنقطعين إلى الجوار... وانحسر العرب إلى البادية»[2]. قلت: ولا تكاد تجد منهم داخل أسوار المدينة في

(١) القطائع النبوية ٢٧.

(٢) المدينة النبوية في فجر الإسلام والعصر الراشدي، محمد حسن شراب ٢/ ٤٢ نقلا عن الحق الأبلج لعبدالمحسن بن طما ٧٦.

القرن الثاني عشر الهجري إلا بُويتاتٍ قليلة وأفرادًا معدودين على الأصابع ذكرهم عبدالرحمن الأنصاري في كتابه تحفة المحبّين والأصحاب، وما ذاك إلا نتيجة لخروجهم من المدينة والتحاق بعضهم بالأمصار وعودة بعضهم إلى حياة البادية في الحجاز من القرن الهجري الأوّل، مجبرين لا مختارين.

٢٥- وفي تفسير تلك النصوص العديدة التي تثبت سُكنى الأنصار في مناطق متفرّقة من الحجاز وما حول الحجاز -وبخاصة في المثلث الواقع بين المدينة وينبع ومكة- أقول: إنّ قبائل الأنصار واجهت ضغوطًا وملاحقاتٍ من بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين وبعض ولاة المدينة المتقدّمين في زمن الأمويين والعباسيين، لميل الأنصار أو ميل بعضهم إلى عليّ بن أبي طالب وذريته في أيام الفتنة وبعدها، وليست وقعة الحرّة في عهد يزيد بن معاوية، واستباحة المدينة عنا ببعيد، فقد قُتل من الأنصار خلق كثير، كما تقدّم، وفرّ بعضهم بأهله إلى البادية، ومن هنا كان لهم امتداد في البادية وعمق يحميهم من ملاحقة الخلفاء وبعض الولاة، فحالفوا القبائل الحجازية المجاورة للمدينة وذابوا فيها مع تعاقب القرون وانعدم الأمن، وتفشّي الجهل في البادية قرونًا عديدة، فلم يكن هَمّ القبائل في تلك الأزمان الصعبة إلا العيش والأمن في ديارها وتأمين مياهها ومراعيها، وكانت تلك الظروف القاسية التي واجهت قبائل الأوس والخزرج، مع الملاحقات المتكرّرة والتضييق عليهم في مدينتهم من أبرز الدوافع للخروج إلى البادية والسكنى بها، وهي دوافع كافية أيضا للتحالف والدخول البطيء الصامت في قبائل أكبر، وذوبانهم فيها، كما دخلت مزينة في حرب بصمت وسكتت عن دخولها المصادر القديمة، ونجد اليوم أسماء عديدة من قبائل الأنصار وبطونها مطابقة لما في بعض القبائل التي تحيط ديارها بالمدينة المنورة من جميع جهاتها، ولا يمكن أن يكون ذلك كله مجرد تشابه أسماء، فالتشابه يدعو إلى النظر

حين يؤيده المكان والزمان والظروف السياسية والاقتصادية، وقد وقع مثل هذا لقبائل أخرى ورد ذكرهم في نصوص صريحة للجاسر والبلادي نقلتها في بحثي (الأحلاف في القبائل العربية) وليس من أهدافي في هذا البحث أن أتناول المسألة الأنصارية، وأتوسّع في أدلّتها وقرائنها، فلهذا الموضوع بحث آخر مفصل، يأتي في حينه إن شاء الله.

***

وبهذه النصوص الكثيرة المنقولة من المصادر التاريخية والبلدانية القديمة والمعاصرة يَثبت وجود القبائل الأنصارية من الأوس والخزرج في بادية الحجاز بين الحرمين إلى ينبع، وتبطل دعوى خلوّ الحجاز منهم، وبهذا يترجّح انضمام تلك القبائل والبطون والأفناء إلى قبائل أكبر، بعد القرن الرابع، لتصبح جزءًا من مكوّناتها. وإنّ تداخل القبائل وتحالفها وانضواء بعضها في بعض عادة اجتماعية مألوفة في جزيرة العرب، فرضتها ظروف المعيشة والحاجة إلى الأمن منذ العصر الجاهلي إلى عهودٍ قريبةٍ من القرون الماضية، قبل توحيد هذه البلاد المباركة على يد موحّدها الملك عبدالعزيز آل سعود، رحمه الله، وقد رأينا في نصوص العلماء منذ هشام الكلبي ما يفيد بتداخل القبائل في جزيرة العرب، كما جاء في بحثي (الأحلاف) ومع ذلك لم يكن المؤرخون شموسًا مشرقة على كل ما في الحجاز من أخبار القبائل وتحركاتها وتحالفاتها طيلة أربعة عشر قرنًا، فما غاب عنهم أكثر وأعظم، ولا شكّ أنه فاتهم من أخبار البادية وسكانها وتداخلاتها الكثير، وبخاصة أنّ عِلْمَ أكثرِ مؤرخي الحجاز بعد الدولة الأموية والعباسية لا يكاد يتجاوز أسوار المدينتين الشريفتين، كما يقول عاتق البلادي[١]، وإنّ ما سكتت

---

(١) قال البلادي في كتابه (نهاية الدرب في نسب حرب) ص ١٠: «لم يُدوّن من تاريخنا إلا ما وجدناه في المراجع التي ما كان مؤلفوها يستطيعون أن يتجاوزوا حدود الحرم».

عنه المصادر في الأنساب أكثر بكثير مما أفصحت عنه، فعلى الباحث الجاد الذي يريد أن يضيف شيئًا مفيدًا إلى تاريخنا القديم والوسيط، ويسدّ بعض ثغراته ألا يكتفي بما في المصادر القديمة، وهو يعلم نقصها، والتاريخ مزيج من الرواية والنصوص والقرائن والاستنباط.

ترجمة عرّام السلمي

وإثبات ولادته في الحجاز ومعرفته بسكّانه ومواضعه

يُعدّ عَرّامٌ السُّلمي من أقدم البلدانيين الذين عرفهم تراثنا، وهو من رواة اللغة المتقدمين الأثبات، ينقل عنه اللغويون في معاجمهم كما ينقل عنه البلدانيون، وهو عمدتهم في مواضع تهمامة الوسطى والحجاز. له كتاب **(أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه)** أملاه على أبي الأَشْعَث الكِنْدِيّ، وعنه نقل البلدانيون.

فمَنْ عرّامٌ هذا؟ وما موطنُهُ؟ وهل هو ثقة في المواضع وسكانها؟

هو عَرّام بن الأَصْبَغ السُّلميّ، من الأعراب الرّواة المتقدمين العارفين باللغة ومواضع تهامة والحجاز، تدلّ القرائن على أنّه ولد في القرن الثاني وعاش الشطر الأكبر من حياته في القرن الثالث، لا يُعرف تاريخ مولده ولا سنة وفاته على وجه التحقيق، ينقل عنه أبو الأشعث عبدالرحمن الكندي والسَّكُوني وأبو تراب اللغوي ولُغْدة الأصفهاني وأبو عبيد البكري ومحمد بن موسى الحازمي وياقوت الحموي وغيرهم، ووَرَد اسمُه في إشارات متفرّقة في عدد من المصادر، يصفونة فيها بـ (الأعرابي)، وبـ (البدوي) أحيانًا، ولم يفرده أحد من المتقدّمين بترجمة، سوى إشارات عابرة، منها إشارة في الفهرست، إذ ذكره النديمُ في فصحاء الأعراب الذين سَمِع منهم العلماء[١]، وإشارة في إنباه الرواة للقفطي، إذ ذكره في الأعراب الرواة الذين دخلوا الحاضرة[٢]. ووَرَد اسمه في جملة صالحة من النقولات اللغوية في معجم العين للخليل تزيد عن خمسين نصًّا، أدخلها الليث في حشو العين فيما يظهر، ووَرَد اسمه في مرويات في التهذيب للأزهري، أخذ بعضها عن

(١) الفهرست ٥٣ تحقيق رضا تجدّد.

(٢) إنباه الرواة ٤/ ١٢٠، ١٢٢.

الليث، وأخذ بعضها عن أبي تراب اللغوي صاحب كتاب الاعتقاب في اللغة، أحصيتها حين كتبتُ بحثي عن أبي تراب هذا، ووَرَد اسم عرّام في نصوص متفرّقة في المعاجم الكبيرة، كالعباب واللسان والتاج.

قال عبدالعزيز الميمني محقّق كتاب عرّام: «وممّا لا أكاد أقضي منه العَجَب أنّ أحدًا من أصحاب التراجم لم يذكر عَرّامًا»[١]، يريد: أنّ أحدًا لم يذكره بترجمة صريحة، مع أنّه عُمدةُ البلدانيين في الحجاز وتهامة، ومن رواة اللغة الثقات المتقدمين.

فأين وُلد عرّامٌ وأين نشأ؟

يرى عاتقُ البلادي أنّ عرّامًا وُلد ونشأ في خراسان فيما يعرف اليوم بإيران، وقال في سياق نقده عرّامًا في أحد المواضع: «إنّ عرّامًا لم ير الحجاز ولا مشى فيه!»[٢]، وقال: «إنّ عرّامًا رغم أنّه سُلمي، إلا أنّه وُلد ونشأ ببلاد ما يُعرف اليوم بإيران»[٣]، هكذا، وهو قول مستغرب من البلادي الذي عرفناه محقّقًا ومُدقّقًا، فكيف يقول هذا دون دليل ولا سند من قول ولا علّة ولا قرينة، فإنّ كانت المصادر سكتت عن ترجمة مفصّلة لعرّام فإنّ النصوص والأوصاف الواردة فيه ناطقة بأنّه نشأ بالبادية وتمرّس باللغة وعرف بلاد قومه سُليم وأوديتها ومياهها وشجرها، ثم حين برع في حفظ اللغة وصَفَتْ سليقته وطاف ببلاد قومه وخَبَرَ مواضعَها وخَبَرَ سكّانَها خبرةَ الحاذق الفَطِن صار أهلا لأنْ يكون من الأعراب الذين ينتخبهم ابن طاهر ويستقدمهم إلى نيسابور بخراسان بعد سنة ٢١٧هـ ليكون مُربّيًا ومُعلمًا.

---

(١) بحوث وتحقيقات عبدالعزيز الميمني ١/ ٤٦٦.

(٢) محراث التراث ٢٧.

(٣) محراث التراث ١٤.

أمّا الوهم أو الأوهام التي أخذها عاتق البلادي على عرّامٍ في كتابه وجعلها دليلا على أنّ عرّامًا لم ينشأ بالحجاز ولا مشى فيه فلا يخلو منها كتاب بلدان، وحتى بلدانيات البلادي نفسه لم تخل من الأوهام، مع أنّ أدوات البحث والاطلاع والتنقّل مواتية له أكثر من عرّام وياقوت بمراحل كثيرة، ومع نقده عرّامًا نراه يعتمد على كثير من نصوصه، في معجمه الكبير (معجم معالم الحجاز)، وينقل النصوص التي أشارت إلى سُكنى الأنصار في الديار التي ذكرها عرّام، إما نقلا مباشرًا أو بواسطة، دون أن يُنكر عليه شيئًا منها، أو يعلّق بما يفيد الشكّ.

والقول الصحيح الذي تؤيّده الأدلّة والقرائن أنّ عرّامًا نشأ بالبادية بين ظهراني قومه قبيلة سُليم الحجازية التّهامية، كما يظهر من أقوال العلماء المحقّقين، أمثال القفطي وياقوت الحموي وعبدالعزيز الميمني وخير الدين الزركلي وعبدالسلام هارون، وتعضّده الأوصافُ التي وُصِف بها عرّامٌ، وهي أنه (أعرابي) و(بدوي) و(من الأعراب الذين دخلوا الحاضرة) ويعضّده أيضًا علمه الغزير بمواضع تهامة والحجاز، وأنه يَصدر في وصفها عن نفسه ولا ينقل عن غيره.

وإليكم أقوال العلماء التي تثبت ذلك:

١- ذكر القفطي جماعةً من (الأعراب الذين دخلوا الحاضرة)، ومنهم عرّام السُّلمي[1]، وقوله (دخلوا الحاضرة) صريح بأنهم كانوا في ديارهم في أوّل أمرهم، ثم دخلوا الحاضرة، للاسترزاق والتكسّب بما يحفظونه من لغةٍ ومعارفَ في البلدان والأنساب، وصريح –أيضًا- بأنّهم لم يولدوا في خراسان ولم ينشأوا بها.

(١) إنباه الرواة ٤/ ١٢٠، ١٢٢.

٢- وعرض ياقوت في رسم (ثافل) لمعنى نبات (الأَيْدَع) عند عَرّام، وهو شجر يشبه الدُّلْب، وذكر أنّ اللغويين غير عرّامٍ مختلفون فيه، فأخذ ياقوت بقول عرّام، وقال: «والصواب عندنا قول عَرّام؛ لأنّه بدويّ من تلك البلاد، وهو أعرف بشجر بلاده، ونِعم الشاهدُ على قول عرّامٍ قول كثيّر حيث قال:

كأنَّ حُمُــولَ القَوْمِ حِينَ تَحَمَّلُوا صَرِيمَةُ نَخْلٍ أو صَرِيمةُ أَيْدَعِ»[١]

وهذا صريح بأن عرّامًا عاش في الحجاز أوّل أمره قبل أن ينتقل إلى خراسان، وياقوت بلدانيّ ومؤرّخ ومحقّق، يعرف عرّامًا ويعرف الديار التي نشأ بها.

٣- وذكر ياقوت في معجم الأدباء في ترجمة أبي سعيد الضرير أنّ عبدالله بن طاهر –وكان ولّاه المأمون خراسان سنة ٢١٧ هـ- استقدم جماعة من الأعراب منهم عرّام، لتأديب أولاد القادة، قال ياقوت: «قال السّلاميّ: حدّثني أبو العبّاس محمّد بن أحمد الغضاريّ، قال حدثني عمّي محمد بن الفضل، وكان قد بلغ مائة وعشرين سنة، قال: لما قدم عبد الله بن طاهر نيسابور وأقدمَ معه جماعةً من فرسان طرسوس وملطية، وجماعةً من أدباء الأعراب، منهم عرّام وأبو العميثل وأبو العيسجور وأبو العجنّس وعوسجة وأبو العذافر وغيرهم، فتفرّس أولاد قوّاده وغيرهم بأولئك الفرسان، وتأدّبوا بأولئك الأعراب، وبهم تخرّج أبو سعيد الضرير، واسمه أحمد بن خالد، وكان وافى نيسابور مع عبد الله بن طاهر، فصار بهم إمامًا في الأدب»[٢]. وهذا صريح في جلبهم من البادية لذلك الغرض الذي ذكره ياقوت، وأنّهم لم يولدوا في خراسان ولم ينشأوا بها.

(١) معجم البلدان ٢/ ٧١.

(٢) معجم الأدباء ١/ ٢٥٤.

٤- وحقق عبدالعزيز الميمني كتاب عرّام ونخله نخلًا وعرف أسراره ومحاسنه وعيوبه، فقال: إنه «أوّل ما كتَبَهُ العربُ في البلدان، أو في جغرافيا الحجاز وتهامة، أملاه في مبتدإ القرن الثالث رجلٌ طاف بلادها وبقاعها، وخِرِّيت جاب أغوارها ونجادها، وذاق من ثمارها وشرب من عيونها وبئارها، وخالط أحياءها وقبائلها، وسلك فجاجها ورَقِيَ قواعلَها، فقتل أرضها خِبرةً وخبرا، ووصف كلَّ ما فيها كما شاء وعلى ما رأى:

إذا قال لم يَتْرُكْ مَقالا لقائلٍ   بمُلتَقَطاتٍ لا تَرَى بينَها فَصْلًا
كَفَى وشَفَى ما في النُّفُوسِ فلم يَدَعْ   لذي إِرْبَةٍ في القَوْلِ جِدًّا ولا[1]

والميمني محقّق مدقّق، ولم يقل هذا القول الصّريح في موطن عرّام ومنشئه إلا عن خبرة به وبكتابه الذي حقّقه، وعرف ما فيه كلمة كلمة.

٥- وقال خير الدين الزِّرِكلي في الأعلام: «عرّام بن الأَصْبَغ السّلمي: ثقة في معرفة جبال تهامة وقراها وسكانها، كان أعرابيًّا من بني سليم، تنقّل في جهات تهامة، ووضع كتابًا»[2].

٦- وقال عنه عبدالسلام هارون في تحقيقه لكتابه: «ويبدو أنه كان أحد أعراب بني سُليم ممن كانوا يطوفون بالبلدان ويتعرّفون مسالكها، فيكتسبون بذلك خبرة صادقة»[3]. وهارون خبير بالمخطوطات وأحوال العلماء الأوائل.

تلك أقوال صريحة -كما ترى- قالها علماء عرفوا عرّاما واتصلوا بعلمه بسبب، وهي تشير إلى نشأته في ديار قومه سُليم بالحجاز وتهامة. وقد كان كتابه في المواضع والأودية والمياه والجبال والنبات وأهل الديار موضع تقدير وترحيب من علماء البلدانيات جميعهم، مثل لُغدة الأصفهاني وأبي عبيد البكري والحازمي وياقوت الحموي،

---

(١) بحوث وتحقيقات (عبد العزيز الميمني) ١/ ٤٦٧.

(٢) الأعلام ٤/ ٢٢٣.

(٣) أسماء جبال تهامة وسكانها ضمن نوادر المخطوطات ٢/ ٣٧٨.

نقلوا عنه، وهو عندهم ثقة فيما يصف، ونقل عنه اللغويون أشتاتًا متفرّقة من اللغة في معاجمهم، وهم في الجملة يثقون في البدو الفصحاء الذين يجيئون من البادية ويدخلون العراق وخراسان. ومن المؤكّد أنّ معارف عرّام البلدانية واللغوية أهّلته لأن يكون من صفوة الأعراب الذين يُستقدمون لتعليم أولاد القادة والولاة في نيسابور زمن ابن طاهر، وكانت نزعته إلى الترحال والاطلاع على المواضع وحاجته إلى الكسب سببًا من أسباب قصده العراقَ وخراسان.

فإن وَهِم عرّام في بعض المواضع من كتابه -كما يقول البلادي- فليس أوّلَ الواهمين ولا آخرَهم، وأين البلداني القديم الذي لا يهم ولا يخطئ؟ وهل سلمت كتب الهمداني ولُغدة والبكري والحازمي وياقوت من الأوهام والأخطاء في المواضع؟ ثم لعلّ بعض ما في كتاب عرام كان من أثر النُّسّاخ واضطراب النسخ، وهي كثيرة الاضطراب والتفاوت، قال الميمني: «ويظهر بعد مقابلة الروايتين أنّ نسخ الكتاب كانت مختلفة جِدَّ اختلافٍ منذ قديم، وقد أورث هذا الاختلاف المتوارَث، إلى اختلافات الورّاقين، وتصحيفات النُسّاخ الحادثة، تضاربًا في الأقوال والمذاهب فاحشًا، وتشتتًا في تسمية الأماكن والبقاع وغيرها، وضبطُها ووصفُها وتحديدُها غير هَيِّن»[1].

عبدالرزاق الصاعدي

المدينة المنورة ١٤٤٣هـ

(١) بحوث وتحقيقات عبدالعزيز الميمني ١/ ٤٦٨.